كابوس روائي

ربيع زعيمية - الجزائر

لقد دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وقد بدأت أجفاني في الانسدال شيئا فشيئا كستارة المسرح معلنة عن انتهاء أحد فصوله ، .. حتى الآن شربت أكثر من أربعة فناجين قهوة ، وأحدثت فوضى كبيرة بالمكان ، خصوصا بعدما فاضت السلة بالأوراق المرمية والمتكدسة حولها ، .. وها أنذا منكب على كتابة روايتي الجديدة ، والتي لم أزد حرفا واحدا عليها منذ أسبوعين كاملين ، لقد تملكني وسواس رهيب متمثلا في عدم قدرتي على إيجاد شخصية مميزة لبطلي الجديد ، لقد حاولت ولكن يبدو أنني استهلكت كل أنواع أبطال الخير المعروفين ، ولم أعد أدري ما أفعل به ، أأجعله شريرا أم ماذا ؟ ولكن كيف يصبح هذا ؟ كيف يكون البطل شريرا ، لن يتعاطف معه أحد ، عدا عن أن يحبوه ، فكيف سيكرهون أعداءه المفترضين إذن ؟

وهل سأجعلها هي الأخرى خيرة بالمقابل ؟ .. أيعقل هذا ؟ بعد كل عهود الرواية التي عودنا كتابها على التعاطف مع الخير والحق وأبطاله الخيرين ؛ الذين يسعون لتحقيق العدل بين الناس وردع الظالمين والمعتدين .. ؟ يبدو أنني أرهقت ولسوف أجد حلا لهذه الإشكالية غدا - إن شاء الله - أما الآن فأنا محتاج لإغفاءة ولو للحظات .. ولكن هل يجوز ترك البطل بلا ملامح .. شخصية محددة .. لا أدري .. بعد مدة أحسست بأني أفقت غاضبا منزعجا .

وقمت لمكتبي وبدأت أحدث نفسي بكلام غريب .. ما هذا البطل ؟ لقد أعجزني الحيلة ، تبا له ، الناكر للجميل، لقد صنعته من عدم وأوجدت له حياة يتمناها كل أبطال الروايات السابقين ، لقد أغنيته ، أعطيته الوسامة والمكانة المرموقة بين كل شخصيات الرواية ، ولكن كل هذا لا يرضيه ، إنه يريد حريته المطلقة في توجيه حياته ، ولكن ماذا عن حياة الشخصيات الأخرى ، إنه يتنكر لفضلي عليه ، ألا يعلم بأنه لابد له من موجد يلم بسيرورة الأحداث إلى نهايتها وله نظرة أشمل وأوسع لمسرح الأحداث ، وأبعد من نظرته الضيقة الأنانية ، إنه يتنكر ، ويتبجح بأن السياق الروائي وتتالي الأحداث الزمانية والمكانية هي التي أوجدته ... والله لأختمن له خاتمة تقشعر منها أبدان أبطال قصص الرعب والخيال الإجرامي ، أيظنني كاتب روايات رومانسية فقط ... أنا من اخترت كل شخوص الرواية ، أنا من حبكت الأحداث لم يفرضها علي أحد ، وسيرتها للعقدة تلو العقدة لأختبر صلابة وصبر الشخصيات التي أوجدتها هل تصلح أم لا ، هل تستحق أن أرسلها إلى لجنة الأدب أم إلى جحيم سلة المهملات ؟!

وفجأة بينما أنا في خضم هذا التفكير إذا بي أسمع صوتا غريبا صادرا من السلة، ومن كل تلك الأوراق المترامية أمامي ، والملقاة على الأرض وفي عمق السلة : وهل نحن فئران تجارب ؟

كيف تتلاعب بنا كما تريد ؟ أتجعل منا الفقير ومنا الغني ، منا المريض الضعيف والقوي الصحيح ، أتوجد لبعضنا مشاكل مستعصية ونهايات بائسة حزينة ، وللآخرين نهايات رومانسية جميلة ؟ أهذا عدل ؟ ...

ذهلت من كل هذا التمرد الذي بدأت طلائعه تهدد مملكتي الروائية .. من أين بدأت هذه الفتنة ومن قائدها ، آه لو أعرف من هو .. ؟ أيريد تحريض أبطالي وشخوص رواياتي على التمرد علي .. ولكن اسمعوا ردي جميعا : لقد أوجدتكم من عدم ونفخت فيكم من حبر قلمي ، حتى أصبحتم لحما ورقيا بدم حبري، وأصبح ذكركم على كل لسان، دموع تتعاطف مع مآسيكم، وأفواه تبتسم لأفراحكم ونهاياتكم السعيدة .

لقد أعطيتكم الخلود مع أني أنا ذاتي بشر فان ، وبعد كل الليالي التي قضيتها حاملا قلمي أقاوم جيوش النعاس وأسراب الظلام ، منعزلا عن المجتمع من حولي ، أرسم لكم عالما رائعا مليئا بالمفاجآت - مهما بلغت قسوة بعض أحداثه - ولكن في الأخير أعددت لكم جنة من السعادة والهناء ، فلم أبخل على أي بطل خير بأميرة أحلامه ، ولا شاب طامح شجاع بالغنى والشهرة ، ولا محارب طالب حق بالنصر وهزيمة عدوه ، لقد أردت إظهار أنفسكم لأنفسكم ، تعريفكم بمقدراتكم، بمواهبكم وبكل شيء جميل في نفوسكم أوجدته لكم ، إنها مفاجآتي التي دعوتكم لاكتشافها في نفوسكم ، قبل أن أعطيكم النهاية السعيدة ، ولكن كل هذا لم تدركوه للأسف وها أنتم تتمردون علي وكأني استعبدتكم بشكل أناني ، فإذا لم تروا أن كل هذا لصالحكم ، فاخرجوا من كل رواياتي .. اغربوا عن وجهي .. اختفوا في العدم واذهبوا إلى حيث تشاؤون ، إن استطعتم ذلك ، لكن تذكروا مع أنكم أحرار ، فإن النسق الروائي لن يتغير أبدا سواء رضيتم أم لم ترضوا ، ولكنه برضاكم يكون أجمل .. وأستطيع المجيء بأبطال أفضل منكم ، وأكثر اعترافا بالجميل منكم .. حقا شخصيات ناكرة ..

لكن من دفعكم لهذا ؟! أخبروني فقط .. لسوف أغير حياته بجزء ثان أبعثه فيه بعد موته وأريه فيه كل طعوم المرارة والبؤس .. أخبروني فقط .. فأشاروا جميعا إلى بطلي الجديد .. فضحكت حتى استلقيت على فراشي ، لأسمع رنينا بدأ ينسل لأذني وأنهض مسرعا مدركا أني كنت أحلم بكابوس .. أرفع سماعة الهاتف .. آلو من ؟

- أنا الناشر الذي تعاقد معك على روايتك الجديدة .. هل أنهيتها ؟ إذا لم تنهها فسوف ألغي العقد وأرفع عليك قضية تعويض .. لقد مر شهران كاملان ولم أستلم شيئا !!